قيام الدولة السلجوقية

كان انتصار السلاجقة على الغزنويين في سنة 429 هـ ايذانا باعلان قيام دولتهم، فاندفعوا تحت قيادة طغرلبك نحو مدينة نيسابور ودخلوها صلحا، وجلس طغرلبك على عرش مسعود في (ذي القعدة من سنة و429 هـ) ولقب بالسلطان المعظم ركن الدنيا والدين ابو طالب ، وأمر أن يخطب له على المنابر باسم (السلطان الاعظم) ، وان تضرب النقود باسمه، وباشر مهامه كسلطان فعلي منذ سنة 429 هـ ولم يبق له سوى الحصول على اعتراف الخليفة العباسي ليكسب حكمه صفة الشرعية امام المسلمين .

والواقع أن قيام الدولة السلجوقية كان حدثا جديدا في التاريخ الاسلامي اذ ما لبثت هذه الدولة الفتية آن لعبت دورا رئيسيا في توجيه الأحداث في منطقة الشرق الأدنى، ولم يمض وقت طويل حتى تم لها السيطرة على أجزاء كبيرة من الدولة العباسية من ممتلكات الروم البيزنطيين في آسيا الصغرى والمناطق المجاورة لإيران .

وكان رد الفعل عنيفا لدى الغزنويين، فقد هب السلطان مسعود مذعورا عند سماعه نبأ قيام الدولة السلجوقية واعتلاء طغرلبك عرشه في نيسابور، واندفع بقواته نحو خراسان لخوض معركة انتحارية ضد السلاجقة، ودارت الحرب بين الفرقين في موضع يعرف باسم (دندانقان) في اقليم خراسان في اليوم الثاني من شهر رمضان سنة (431 هـ –1039 م) وانتهى الأمر بهزيمة السلطان مسعود هزيمة نكراء، واستولى السلاجقة على ما لا حصر له من الذهب والفضة والملابس والدواب و واصل السلاجقة انتصاراتهم بعد معركة داندانقان، واتفقوا على ان يكونوا جبهة متعددة والا يدعوا للفرقة أو التنازع سبيلا الى قلوبهم ، كما اكدوا اتفاقهم على تعيين طغرلبك قائدا أعلى لجيوشهم وسلطانا على دولتهم وان يدينوا له بالولاء، ولم يكن طغرلبك هذا اكبر ابناء ميكائيل فقد كان اخوه جغري يكبره سنا، الا ان طغربك كان يتمتع بشخصية قوية وذكاء حاد، وشجاعة نادرة وتمسك شديد بالدين الاسلامي الحنيف.

فكان هذا سببا في التفاف الجند والقبائل حوله وأنقيادهم اليه، فصمم على تحقيق أهداف السلاجقة في بناء دولة قوية واسعة الأرجاء، فاستعان في تحقيق هذه الأهداف بأفراد اسرته وعمد الى تعيين كل واحد منهم حاكما على أحدى الولايات وسمح له في التوسع على حساب القوى المجاورة لحدود ولايته واتخذ طغرلبك مدينة الري عاصمة للدولة السلجوقية .

اتصال السلاجقة بالخلافة العباسية

لم يبق أمام السلاجقة بعد أن اطمأنوا الى قوة مركزهم وتوطيد نفوذهم سوى اسباغ الصفة الرسمية لدولتهم الفتية واكساب حكمهم الصفة الشرعية. فشرعوا في سنة 432 هـ /1040 م في الاتصال بالخليفة العباسي القائم بأمر الله للحصول على اعترافه بشريعة حكمهم للبلاد التي تقع تحت سيطرتهم والتي يسيطرون عليها مستقبلا، واختار السلاجقة ابا اسحق الفقاعي رسولا إلى بغداد يحمل رسالة تتضمن تأكيد ولائهم للخليفة العباسي ورغبتهم في الجهاد في سبيل الله وابتغاء مرضاته.

ورد فيها : «اننا معشر آل سلجوق قوم اطعنا دائما الحضرة النبوية المقدسة واحببناها من صميم قلوبنا، ولقد اجتهدنا دائما في غزو الكفار واعلان الجهاد وداومنا على زيارة الكعبة المقدسة، وكان لنا عم مقدم محترم بيننا اسمه اسرائيل بن سلجوق، قبض عليه يمين الدولة محمود بن سبكتكين بغير جرم أو جناية وأرسله إلى قلعة كالنجر ببلاد الهند، فبقي في اسره سبع سنوات حتى مات، واحتجز كذلك في القلاع الأخرى كثيرا من اهلنا واقاربنا، فلما مات محمود وجلس في مكانه ابنه مسعود لم يقم على مصالح الرعية واشتغل باللهو والطرب... فلا جرم اذا طلب منا اعيان خراسان ومشاهيرها أن نقوم على حمايتهم، ولكن مسعود وجه الينا جيشه فوقعت بيننا وبينه معارك تناوبنا بين كر وفر وهزيمة وظفر حتى ابتسم لنا الحظ الحسن فانحاز الينا فغلبنا مسعود ومعه جيش جرار ظفرنا بالغلبة بمعونة الله عز وجل بفضل اقبالنا على الحضرة النبوية المقدسة ، وانكسر مسعود وأصبح ذليلا، وانكفأ علمه وولى الأدبار تاركا لنا الدولة والاقبال وشكرا لله على ما أفاء علينا من فتح ونصر، فنشرنا عدلنا وإنصافنا على العباد وابتعدنا عن طريق الظلم والجور والفساد، ونحن نرجو أن نكون في هذا الأمر قد نهجنا وفقا لتعاليم الدين ولأمر أمير المؤمنين» .

ووجدت رسالة السلاجقة هذه الاستحسان لدى الخليفة العباسي في وقت كانت الأمور ببغداد مضطربة، فكثرت ثورات الجند الأتراك من جهة وزادت هجمات البدو و العيارون على المدن والأسواق من جهة أخرى، ولم يكن للخليفة القائم بأمر الله ولا للملك البوبهي (جلال الدولة) أي سلطان، فوجد الخليفة في السلاجقة قوة جديدة يمكن ان يكون لها أثرها الخطير في مجريات الأمور في حاضرة الخلافة العباسية لو اصطنعها واستجاب لطلبهم، فأظهر رغبته في التقرب اليهم، وبادر بإيفاد قاضي القضاة ابا الحسن بن على بن محمود الماوردي وهبة الله بن محمد المأمون إلى السلطان طغرلبك في سنة 435 هـ متوجها الى الري بصحبة اسحق الفقاعي مبعوث السلاجقة إلى دار الخلافة .

وأمر الخليفة رسوله بالتقرب من طغرلبك واقناعه بالحضور الى بغداد ستشرف دار الخلافة بحضوره، وأن ينقل اليه رغبته بعقد الصلح بين الزعيم السلجوقي والامير البويهي ابي كاليجار والملك جلال الدولة ، كما تضمنت الرسالة ايضا استياء الخليفة وعدم قبوله لما اقترفه اصحاب طغرلبك من فساد وأمره بالاحسان إلى الرعية، وحمل الماوردي الخلع السلطانية التي منحها الخليفة العباسي لطغرلبك مع كتاب التفويض بحكم البلاد وقد عبر السلاجقة عن سرورهم البالغ بوصول كتاب الخليفة فخلعوا على الرسول ثلاثة عشر خلعة، وتباهوا برسالة الخليفة وازدادوا بها قوة ورفعه ورحب السلطان بدعوة الخليفة له بزيارة بغداد، ووعد بتلبيتها في اقرب فرصة، ويبدوا أن طغرلبك كان مشغولا في هذه الأثناء بفتح الاقاليم الغربية والجنوبية من ايران، واقام رسول الخليفة في ضيافة السلطان نحو سنة عاد بعدها الى بغداد ومعه عشرون الف دينار هدية من السلطان الى الخليفة وعشرة الاف اخرى لحاشيته وفي رمضان من سنة 443 هـ، وفد على بغداد رسل السلطان طغرلبك، يحملون رد السلطان على رسالة الخليفة القائم بامر الله، تضمن شكره لانعام الخليفة عليه بالخلع والالقاب، وحملوا الى دار الخلافة عشرة آلاف دينار عينا واعلاقا نفيسة من الجواهر والثياب والطيب وغير ذلك من السلطان الى الخليفة القائم، كما قدموا خمسة آلاف دينار للحاشية والفي دينار لرئيس الرؤساء واستقبل وفد السلطان استقبالا حافلا اذ أمر الخليفة باكرامهم وانزلهم باب المراتب .

وما أن أطمئن طغرلبك على سلامة الموقف في اقليم فارس ونواحي اذربيجان و أحكام السيطرة السلجوقية في هذه البلاد حتى توجه نحو ارمينة في عام (446هـ /1054 م) فاجتاح الاقاليم الواقعة بين بحيرة وان وارزن الروم والبلاد المجاورة لطرابزون، ثم قصد ملاذكرد فحاصرها وضيق على أهلها، وعلى الرغم من المساعدات التي قدمها نصر الدولة بن مروان صاحب ديار بكر الا أن السلاجقة فشلوا في الاستيلاء على هذه المدينة نظرا لما كانت تتمتع به من حصانة، فأثر طغرلبك الأنسحاب إلى أذربيجان و منها إلى الري فاقام بها حتى سنة 447 هـ عكف خلالها على استكمال الترتيبات لدخول بغداد بعد أن تم له الاستيلاء على معظم أجزاء ايران وبعض البلاد المجاورة لها. ورأى أن الوقت قد حان لفرض سيطرته على العراق ووضع حد للنفوذ البويهي في حاضرة الخلافة العباسية .